٢- المجاز القرآني

دراسة تحليلية حول نص مختار من سورة الأعراف

قال الله تعالى يحكي طرفًا من قصة موسى عليه السلام :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٤-١٥٧).

● موضوع هذه الآيات :

حكت هذه الآيات طرفًا من قصة موسى عليه السلام ، وهو طرف مثير من تلك القصة وقد اشتملت هذه الآيات على صور شتَّى من المجاز والمعاني والبديع ، إذ هى نص محكم متماسك يطالعك بمطلع مثير : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ .

فقد أسند السكوت إلى الغضب ، وصار الغضب فاعلاً للسكوت ، وهذا العمل يدعو إلى التأمل والتفكير ، فليس الغضب ممن يتكلم حتى يُسند إليه السكوت ، وليس السكوت من الأحداث التي تثبت للغضب أو تنفي عنه ، الغضب عن ذلك بمعزل .

● **مجاز على وجوه ثلاثة :**

إذن فإن في التعبير تجوزًا ، وهو محتمل لثلاثة وجوه :

١- أن يكون استعارة تصريحية تبعية ، بأن يشبه زوال الغضب . بـ« السكوت» بجامع انعدام الأثر في كل ، والقرينة ـ إذن ـ هي إسناد السكوت إلى الغضب .

٢- أن يكون استعارة بالكناية ، ووجهه أن تشبه الغضب بإنسان ثائر يقذف الحمم من لسانه ويضرب ويبطش ويصول ويجول ، ثم تحذف المشبه به ، وترمز له بشيء من خواصه وهو ـ هنا ـ السكوت ، وإلى هذا الرأي يميل الزمخشري فيقول : « كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ، ويقول له : قل لقومك كذا ، وألق الألواح وجر برأس أخيك إليك ، وتُرِك النطق بذلك ، وقطع الإغراء ، ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفحصها كل ذي طبع سليم ، وذوق صحيح إلا لذلك ولأنه من قبيل شعب البلاغة »[1] .

ويميل إليه العلاَّمة أبو السعود فيقول : « وفي هذا النظم الكريم من المبالغة والبلاغة بتنزيل الغضب الحامل له على ما صدر عنه من الفعل والقول منزل الآمر بذلك المغري ، ثم استعير التركيب الدال على المشَّبه به للمشبه وفي التعبير عن سكونه بالسكوت ما لا يخفى »[2] .

ويذهب الإمام النسفي مذهبهما فيقول موجزًا : ولما كان الغضب لشدته كأنه هو الآمر لموسى بما فعل قيل : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : (ح هـ ص) .

(٢) تفسير أبي السعود : ٣٠١/٢ .

٣- أن يكون استعارة تمثيلية بأن تشبه الهيئة الناشئة عن الغضب بهيئة إغراء مغر ، فإذا انقطع عنه الإغراء سكن المغري ثم استعير التركيب الدال على المشبَّه به وهو «سكت» للمشبه .

هذه توجيهات ثلاثة لتحديد نوع المجاز في الآية ، والواقع أن روعة التعبير فيها لا تتوقف على معرفة ما هو نوع مجازها ، والذي أميل إليه ما اختاره المفسرون من حمل المجاز على الاستعارة المكنية لأن الغرض وصف الغضب بأنه كان حادًّا قد بلغ مداه من نفس موسى عليه السلام ، حتى أصبح هو الذي يقول ويفعل ، وهذا لا يتأتى على أكمل وجه إلا في الاستعارة المكنية .

وبهذا يبدو ذوق المفسرين وكونهم أقرب إلى طبيعة الأسلوب القرآني وجزالته .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون لأن الوصايا التي فيها إذا تمسك بها قوم موسى هدتهم إلى الحق ، وجعلتهم أهلاً لأن يرحمهم الله ، والقرينة اعتبار أن يكون الهدى والرحمة ملتبسين بالنسخة تلبسًا حقيقيًّا وقائمين بها .

أو العلاقة اللزومية .. لأن مَن يتمسك بتلك الوصايا لزم أن يكون مهتديًا مرحومًا .

● بنو إسرائيل والرجفة :

﴿ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ .

«الرجفة» من الرجف ، والرجيف : هو شدة الحركة والاضطراب ، ويقال : بحر رجاف ، والإرجاف : إيقاع الرجفة إما بالفعل وإما بالقول[1] .

والمقصود بها في الآية حركة الجبل الشديد ، واضطرابه وعليه المختارون من قوم موسى ، والمراد معنى الأخذ المجازي الذي هو : الهلاك والموت .

---

(١) مفردات القرآن ، الراغب الأصفهاني ص ١٨٩ .

يقال : أخذته الحمى[1] ـ إذا أماتته ، وفاعل الأخذ بالمعنى الحقيقي الذي شرحناه هو الله تعالى ، وإسناده إلى الرجفة مجاز عقلي علاقته السببية ، والقرينة استحالة وقوع الهلاك من الرجفة بغير إذن الله وإرادته وقدرته .

وسره البلاغي هو المبالغة في تصوير الهلاك حتى صارت الرجفة عدوًّا لهؤلاء الناس فصرعتهم لما كفروا .

وفي إطلاق الأخذ على الهلاك مجاز لغوي على طريق الاستعارة التصريحية التبعية والجامع ما يترتب على كل من اختفاء الميت والمأخوذ ، والقرينة استحالة أن تأخذهم الرجفة أخذًا ، كما يأخذ صاحب المتاع متاعه .

واجتماع المجازين في هذه العبارة شبيهه من كلامهم قول الشاعر :

وَتُحْيِي لَهُ المَالَ الصَّوارِمُ وَالقَنَا وَيَقْتُلُ مَا تُحْيِي التَّبَسُّمُ وَالجَدَا

حيث استعار الإحياء والقتال لجمع المال وتفريقه ، وأسند كلا من « تحيي » و« يقتل » إلى غير ما هو له ، وهو « الصوارم » في الأول ، و« التبسم » في الثاني ، وسره البلاغي المبالغة في تصوير المعنى ، والبيت كناية عن الشجاعة والكرم أو استعارة تمثيلية وهو الأظهر .

● **الحقيقة والمجاز في مادة « أخذ » :**

ومادة « أخذ » في القرآن استعملت في المعنيين ـ الحقيقي والمجازي ـ والمعنى المجازي لها فيه عدة صور :

١- فأحيانًا يأتي بمعنى الهلاك والدمار ، ويغلب في هذا النوع أن يكون إسنادها إلى الله تعالى ، أو إلى ظواهر طبيعية كالرجفة والصيحة والصاعقة والطوفان ، والإسناد إلى الله حقيقي بداهة ، أما الإسناد إلى الظواهر الطبيعية فعلى طريق المجاز العقلي ، وعلاقته ـ دائمًا ـ السببية .. ومن أمثلة هذا النوع :

---

(١) مفردات القرآن ، الراغب الأصفهاني ص ٨٢ .

(١) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود:١٠٢) .

(٢) ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ (هود:٦٧) .

(٣) ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ (البقرة:٥٥) .

(٤) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ (العنكبوت:٣٧) .

(٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ (العنكبوت:١٤) .

٢- وأحيانًا يكون بمعنى الابتلاء والاختبار ، والإسناد في هذا النوع لا يكون إلا لله ، ومن أمثلته :

(١) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ (الأنعام:٤٢).

(٢) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ (المؤمنون:٧٦) .

(٣) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (الأعراف:٩٤) .

ولعل معنى الابتلاء والاختبار واضح في هذه الآيات الثلاث .

٣- وأحيانًا يكون بمعنى العقاب والمجازاة ، ومن أمثلته :

(١) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ (المزمل:١٥،١٦).

(٢) ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ (يوسف:٧٩).

(٣) ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ (يوسف:٧٦) .

وإنما كان الأخذ هنا بمعنى العقاب ـ أعني آيتي يوسف ـ لما ذكره الزمخشري من أن السارق في شريعة يعقوب يغرم مثل ما أخذ وإلا استرق سنة ، ولهذا كان حمل الأخذ على معنى العقاب أظهر وأولى ، بل على معنى الاسترقاق .

٤- ومرة يكون بمعنى الهيمنة والسلطان ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (هود:٥٦) .

٥- وأخرى تكون بمعنى الإمساك ، ومنه قوله تعالى :

(١) ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ (الحاقة:٤٤-٤٦) .

(٢) ﴿ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ﴾ (طه:٩٤) .

٦- وحينًا بمعنى التقبل ، ومثاله : ﴿ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ (التوبة:١٠٤) .

٧- وآخر بمعنى الغلبة ومثاله : ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ (البقرة:٢٥٥) .

لأن الذي ينام يغلبه النوم فيمتثل له ، والله سبحانه منزَّه عن هذا .

٨- وبمعنى الإعداد ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ (التوبة:٥٠) .

٩- وتأتي كذلك بمعنى التوثق والعهد ، ومن أمثلته :

(١) ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ (آل عمران:١٨٧).

(٢) ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ (آل عمران:٨١) .

(٣) ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ (النساء:٢١) .

١٠- وتأتي بمعنى اللبس والتزين ، ومن أمثلته :

(١) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ ﴾ (يونس:٢٤) .

(٢) ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (الأعراف:٣١) .

١١- وتأتي بمعنى الاستحضار والاستصحاب ، ومن أمثلته :

(١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ ﴾ (النساء:٧١).

(٢) ﴿ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (النساء:١٠٢) .

(٣) ﴿ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ (النساء:١٠٢) .

١٢- وتأتي بمعنى العمل ، ومن أمثلته قوله تعالى :

(١) ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ﴾ (الأعراف:١٤٥).

(٢) ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (الحشر:٧) .

١٣- وتأتي بمعنى التخلق والانتهاج ، ومن أمثلته :

(١) ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ (الأعراف:١٩٩) .

(٢) ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ (الذاريات:١٦) .

١٤- وبمعنى الإزالة والإذهاب ، مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ ﴾ (الأنعام:٤٦) .

● صيغ مادة «أخذ» :

والحق أن هذه المادة وردت كثيراً في القرآن في صورة الثلاثي المجرد : «أخذ» أو «يأخذ» أو «خذ» ، وفي صورة اسم الفاعل منها «آخذ» وهما الصورتان اللتان عرضت بعض أمثلتهما مما وردت فيه مجازًا .. وقد وردت كذلك في صورتين أخريين هما :

إحداهما : أن تدخل عليها تاء الافتعال «اتخذ» أو «يتخذ» أو «متخذ»

وهي هنا تفيد الجعل مع اختصاص المتخذ بالولاء ، أو الاستئثار به ، مثال الأول قوله تعالى : ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنعام: ٧٤) .

ومثال الثاني قوله تعالى حكاية عن زعم الكفار : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ (مريم: ٨٨).

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾ (الممتحنة: ١) .

وقوله تعالى في التسامي بغريزة الجنس : ﴿ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ (النساء: ٢٥) .

وثانيتهما : أن يزاد ألف في أولها وتصبح حينئذ رباعية مختصة بالمجازاة والعقاب .

مثل قوله تعالى : ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ (البقرة: ٢٢٥) .

وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦) .

● **نتائج مهمة :**

إن الدارس لمادة «أخذ» في القرآن يخرج بالنتائج الآتية :

أولاً : أنها تستعمل ثلاثية في المعنى الحقيقي والمجازي ، والاستعمال المجازي فيها أكثر ورودًا ، وهي في هذه الحالة تقع مجازًا عن معان كثيرة قد أحصينا منها خمس عشرة حالة تردد بين المجاز المفرد هو الغالب عليها ، وبين المجاز المركب .. مثل قوله تعالى : ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾ (الحاقة: ٤٥) لأنه تمثيل لقدرة الله .

ومثل : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ ﴾ (يونس: ٢٤) .

ثانيًا : إذا لم تكن ثلاثية مجردة ـ بأن زيدت الألف في أولها ، أو دخل عليها تاء الافتعال ـ فإن المعنى يصبح مع الأول محصورًا في المجازاة والمعاقبة سواء

أكانت اسمًا أم فعلاً ، والمعنى مع الثانية يصبح محصورًا في الجعل مع إضافة هذا الجعل إلى نفس المتخذ بأن يخص هو الشيء المتخذ بالولاء ، أو الاستئثار به .

ولا يخلو الاستعمال في الصورتين من المجاز ، لأن أصل المادة موضوعة لتناول الشيء المأخوذ أخذًا حسيًا .

والمجاز في الأولى مرسل علاقته الإطلاق والتقييد ، فيقال : آخذه ـ بمعنى لامه أو عاقبه ، وسره البلاغي ما يُشعر به أصل الفعل من التناول والإمساك .

والمجاز في الثانية تمثيلي مركب وسره البلاغي ما يشعر به أصل الفعل من تعظيم الشيء المأخوذ ومنزلته عند الآخذ .

ثالثًا : وبعد هذا يمكن القول بأن هذه المادة ـ في القرآن الكريم ـ مادة مجاز وإن كان المجاز في بعض صورها لا يكاد يظهر لشيوع استعمال المعنى المجازي حتى صار كالحقيقة .

● **الإسناد المجازي لمادة «رجف» :**

أما مادة «رجف» فقد أسند الله إليها أحداثًا غير ما تقدَّم ، وذلك في ثلاثة مواضع هي :

١- ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴾ (النازعات:٦) .

٢- ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ (الأعراف:٧٨) .

٣- ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ (العنكبوت:٣٧) .

وفي إسناد الأخذ إلى الرجفة تهويل لما أنزله بالكافرين ، ومبالغة في تصوير المعنى لا يخفى أثرها .

● **الدعاء :**

﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾

(الأعراف:١٥٦) .

دعاء وتضرع من موسى عليه السلام ، وتوبة وإنابة إلى الله ورغبة قوية في توفيقه ، والمراد بالكتابة : التقدير والإثبات ، فمعنى «اكتب» : قَدِّر وأثبت واقسم لنا هذه الأشياء .

فالتعبير عن التقدير والقسم بالكتابة مجاز لغوي على طريق الاستعارة التصريحية التبعية شبه فيها القسم ـ وهو معنوي ـ بالكتابة ، وهي أمر حسي ، والجامع التوثق في كل والعلاقة امتناع أن تكتب الحسنة .

واستعمال « كتب» في الدعاء مجاز مرسل علاقته الإطلاق والتقييد ، حيث أطلق الأمر وأراد به الدعاء ، والقرينة امتناع أن يأمر الله آمر .

● **مادة « كتب» في القرآن :**

وقد استخدم القرآن مادة « كتب» كثيراً ويغلب المجاز على استعمالها فيه إذا كانت فعلاً ، وقد استخدمها مجازًا في أغراض شتَّى . نذكر منها ما يلي :

١- بمعنى الفرض ... ومنه قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ (البقرة:١٨٣) .

٢- وبمعنى الحلال .. ومنه قوله تعالى : ﴿ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ (البقرة:١٨٧).

٣- وبمعنى التثبيت .. ومنه قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ ﴾ (المجادلة:٢٢).

٤- وبمعنى التقدير .. ومنه قوله تعالى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ (التوبة:٥١) .

٥- وبمعنى الجعل .. ومنه قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (المائدة:٨٣).

٦- وبمعنى التخصيص .. ومنه قوله تعالى : ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (الأعراف:١٥٦) .

٧- وبمعنى التملي .. ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (الفرقان:٥) .

٨- وبمعنى الإحصاء .. كقوله تعالى : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (يس:١٢) .

● **ملاحظات مهمة :**

ويلاحَظ ـ هنا ـ أن المجاز مقصور على استعمالها فعلاً ، أما إذا استعملت صفة فإنها لا تخرج عن المعنى الوضعي ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾ (الانفطار:١١).

وقوله : ﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة:٢٨٢).

ويلاحَظ ـ كذلك ـ أن استعمالها فعلاً ليس دائمًا بمعنى المجاز ، بل قد تأتي في المعاني الوضعية كالآية المتقدمة ، وكقوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:٧٩) .

ويلاحظ ـ كذلك ـ أن المجاز فيها متردد بين الاستعارة والمجاز المرسل ، وقد بينا وجه الاستعارة في صدر هذه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها .. أما المجاز المرسل فظاهر في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ .

وقد قلنا : إن معنى المجاز هنا هو التملي ـ حسب زعمهم ـ والتملي صائر إلى الكتابة فعلاقته اعتبار ما سيكون ، والقرينة امتناع إيقاع الكتابة دون مصدر يمد بما سموه : أساطير الأولين .

● **التوبة والرجوع الحسي :**

و﴿ هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ : أي تبنا ، من هاد يهود ـ إذا رجع ، أو هاد يهيد ، والمعنى حركنا إليك أنفسنا وأملناها نحوك ، ويجوز على ما ذكره الزمخشري أن يكون الفعل مبنيًّا للمفعول .. أي : حركت إليك أنفسنا وأميلت .

وفي التعبير عن التوبة بالرجوع الذي هو عدول السائر عن وجهة كان يريدها إلى أخرى عرضت له مجاز يجوز حمله على وجهين :

الأول : أن يكون تمثيلاً شبهت فيه هيئة التائب - وهي أمر معنوي - بهيئة الراجع ، وهي أمر حسي ، وسره التقرير والإيضاح ، والجامع بين الأمرين رجوع التائب عن المعاصي والإقبال على الطاعات ورجوع السائر عن وجهته إلى أخرى ، فالعدول هو الأمر الجامع بين الأمرين .

والقرينة استحالة الرجوع المحسوس إلى الله ، لأنه غير حال في مكان دون آخر يرجع إليه فيه .

الثاني : أن يكون استعارة مفردة شبهت فيه التوبة والرجوع - مطلق رجوع - والجامع والقرينة كما سبق ، فهي استعارة تصريحية أصلية .

● **التعميم والتخصيص في الرحمة :**

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ .

رحمة الله : نعمه وألطافه ، والرحمة في الأصل : الشفقة والحنان ، مشتقة من «الرحم» الذي هو موضع نمو الجنين لما يلقاه فيه من أسباب الراحة ووجوه الإنعام .

ويراد بها في جانب الله لازمها ، وهو ما يترتب عليها من الإكرام والتنعيم والإلطاف .

ولما كانت الرحمة هيئة من هيئات النفس وشعورًا وجدانيًا .. فإن وصفها بالوسع ضرب من المجاز ومعنى : «أن رحمة الله وسعت كل شيء» أن من شأنها أن تشمل جميع الموجودات لكثرتها وسعة فضلها .

وعلى هذا فالمجاز فيها محتمل لوجهين :

الأول : أن تكون استعارة تمثيلية شبهت فيها هيئة الرحمة وما يمكن أن تظله فيها من المخلوقات بشيء محيط متسع ذي طاقة هائلة من الوسع ،

فالهيئة الأولى تخيلية والهيئة الثانية واقعية حسية .. وسره البلاغي إبراز المتخيل المعنوي في صورة الواقع الحسي .. والقرينة امتناع أن تتصف الرحمة بالوسع لأنها ليست ذات مساحة .. فتخيل إسناد الوسع إلى الرحمة هو قرينة المجاز .

الثاني : أن تكون استعارة بالكناية ، شبهت فيها الرحمة بشيء ذي وسع ثم حذف المشبَّه به ورُمِزَ له بخاصة من خواصه وهي «الوسع» ، ومعنى التمثيل فيها أظهر .

والمعنى لا يتغير بتغيير التوجيه الاصطلاحي ، فرحمة الله غير متناهية تكفي أهل السموات والأرض وما بينهما ، وتزيد لتشمل كل شيء حتى الجمادات .

وقد استعمل القرآن هذه المادة «وسع» تمثيلاً لبيان مقدار الرحمة أو العلم في المواضع الآتية :

أولاً : في جانب الرحمة

١- ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (الأعراف:١٥٦) .

٢- ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾ (الأنعام:١٤٧) .

٣- ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً ﴾ (غافر:٧) .

٤- ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ (النجم:٣٢) .

وقد قامت المغفرة في هذا المثال مقام الرحمة ، لأن المغفرة جزء من الرحمة في معناها الشامل .

ثانيًا : في جانب العلم

١- ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ (البقرة:٢٥٥) [١] .

٢- ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام:٨٠).

---

(١) على القول بأن المراد من «الكرسي» هنا العلم ، وفي رأي : أن المراد به العظمة .

٣- ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ (الأعراف:٨٩) .

٤- ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (طه:٩٨) .

٥- ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾ (غافر:٧).

وهذا الموضع مشترك بين العلم والرحمة ، ولذلك أثبتناه في جانب الرحمة باعتبار .. وفي جانب العلم باعتبار .

ومن النظر الفاحص في هذه النصوص يتضح أن كُلاً من رحمة الله وعلمه يتخذ القرآن الكريم منهجًا واحدًا للكشف عنهما وبيان مقدارهما فهما محيطان كل في موضوعه إحاطة شاملة تكاد تدرَك بالحواس لشدة ظهور آثارها الدالة عليها .

● «واسع» .. وصفًا لله سبحانه :

وجاءت هذه المادة على صورة اسم الفاعل وصفًا لله على سبيل المجاز كذلك متلوة بلفظ الحكمة مرة وبلفظ العلم سبع مرات .

وهذه مواضعها على الترتيب :

١- ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ (النساء:١٣٠) .

٢- ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٤٧) .

٣- ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٦١).

٤- ﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٦٨).

٥- ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(آل عمران:٧٣).

٦- ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة:٥٤) .

٧- ﴿ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (النور:٣٢) .

٨- ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:١١٥) .

● **مسوغات الوصف :**

تلك هي مواضع استعمال هذه المادة وصفًا لله سبحانه على التمثيل المجازي وقد حرص القرآن الكريم على أن يقرن إلى وصف الله بهذه الصفة : «واسع» كلمات وأوصافًا أخرى تمهد لهذا الوصف المجازي وتشير إلى جهة مسوغ هذا الوصف .

وهذا المسوغ نوعان :

١- وصف يُذكر بعده ـ أي بعد الوصف المجازي ـ وكاد ينحصر هذا الوصف في «عليم» إلا في موضع واحد كان هذا الوصف «حكيمًا» .

ولا شك أن العلم يوصف بالسعة وكذلك الحكمة لأنها بمعناه .

٢- كلمات تتقدم عليه وكادت تنحصر هذه الكلمات في الفضل ، والفضل يوصف بالسعة فإن لم تكن «الفضل» فهي السعة والمغفرة والحكمة والمضاعفة ، هذه المعاني متقدمة أو متأخرة مهَّدت لوصف الله بالوسع ، فلم يكن هذا الوصف مستغربًا أو نابيًا وإن كان يستخدم في وصف المساحات ، وشتَّان ما بين المساحات وبين اسم «الجلالة» الموصوف في هذه الآيات .

● **وصورتان أخريان :**

هذا وقد بقي من معانيها المجازية في القرآن الكريم ـ أو معان كالمجازية لأن أصلها المجاز وقد شاع استعمالها حتى أصبحت كالحقيقة اللغوية فيما استعملت فيه من هذا النوع ـ بقي صورتان . إحداهما بمعنى الطاقة ، والثانية بمعنى الفضل والسعة في الرزق .

واستعمالها في المعنى الأول : «الطاقة» جاء في خمس آيات هي :

١- ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة:٢٣٣) .

٢- ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة:٢٨٦) .

٣- ﴿ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(الأنعام:١٥٢).

٤- ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ ﴾

(الأعراف:٤٢).

٥- ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ﴾ (المؤمنون:٦٢).

وإنما كانت هنا بمعنى الطاقة لأنها وقعت في حَيِّز التكليف ، والتكليف منوط بما كان في قُدرة الإنسان وطاقته .

وفي تشبيه الطاقة بالوسع تصوير أيضًا للمعنوي بالمحسوس والمجاز فيها يصح حمله على المركب والمفرد .

أما استعمالها في الفضل وسعة الرزق فتلك هي مواضعه وهي خمسة أيضًا:

١- ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾ (البقرة:٢٤٧).

٢- ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾

(النساء:١٠٠) .

٣- ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ ﴾ (النور:٢٢) .

٤- ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ (الطلاق:٧) .

٥- ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ ﴾ (البقرة:٢٣٦) .

تدل الكلمة في هذه المواضع الخمسة على الفضل والتوسعة في الرزق ، ويؤيد هذا عطف السعة على الفضل في الآية وهو عطف تفسير ، والفضل إنما يوصف بالقِلَّة والكثرة ، أما وصفه بالضيق والوسع فعلى طريق المجاز لا غير .

● **الوسع وصفًا للأرض :**

ولهذا لم تأت الكلمة في القرآن ـ أي كلمة وسع ـ في المعنى الحقيقي إلا وصفًا للأرض في قوله تعالى :

١- ﴿ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ﴾ (النساء:٩٧) .

٢- ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٌ ﴾ (العنكبوت:٥٦) .

٣- ﴿ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ (الزمر:١٠).

فإجراء ـ الوسع ـ في الآيات الثلاث وصفًا للأرض جار مجرى الحقيقة اللغوية لأن الوسع أصيل في الأرض .

● **موضع آخر بين الحقيقة والمجاز :**

وبقي مثال واحد لاستعمال هذه المادة في القرآن الكريم يتجاذبه جانبا حقيقة ومجاز ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (الذاريات:٤٧) .

قال في مختار الصحاح : « أي أغنياء قادرون ، ويقال : أوسع الله عليك ـ أي أغناك »[1] .

وعلى هذا التفسير فإن جانب المجاز ظاهر في الآية .

ويمكن حمل العبارة على معنى الوسع الحقيقي ـ أي موسعون في البناء ـ وهو الأفضل لما هو واقع مشاهَد .

وهذا هو جانب الحقيقة في التعبير .

● **حصيلة هذه الجولة :**

إذا تقرر هذا فإن النتائج التي يمكن تسجيلها حول استعمال القرآن لهذه المادة تتلخص فيما يأتي :

أولاً : أن الاستعمال المجازي غالب عليها ، أما الاستعمال في المعنى الحقيقي فحظه فيها قليل لم يأت إلا في ثلاث آيات كانت في سياق الحديث عن الأرض .

وموضع رابع يتردد التعبير فيه بين الحقيقة والمجاز .

---

(١) مادة « وسع » ص ٧٢١ .

ثانيًا : يمكن أن يطلق على هذه المادة بأنها في القرآن مادة مجاز وأن المجاز ظاهر في بعض مواضعها ، ويحتاج إلى روية في البعض الآخر .

● **مادة « تبع في القرآن » :**

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ﴾ (الأعراف:١٥٧).

في هذه الآية شروع في بيان صفات أخرى لمستحقي رحمة الله ، وأول هذه الأوصاف اتباع الرسول ﷺ .

و« تبعه » في اللغة : سار خلفه أو مَرَّ به فمضى معه ، وكذا « أتبعه » ، والمعنى اللغوي ليس مقصودًا للآية بل المراد العمل بالشريعة التي جاء بها عليه الصلاة والسلام والاقتداء به في قوله وفعله .

وإنما عبَّر عنه بالاتباع لتصوير المعقول بالمحسوس لأن النفس حين تتأمل هذه الصورة ترى أن التابع ملازم للمتبوع متحر للسير معه في نفس الاتجاه الذي يبغيه .

كما يدرك أن المتبوع رائد يسير أمام جنوده يسلك بهم أحسن الطُرق إلى أشرف الغايات .

وقد جاءت هذه المادة في القرآن الكريم ـ مادة تبع ـ فيما يزيد عن مائة وخمسين آية ، وكثرة ورودها لا تحول دون أن نقف معها وقفة تكشف لنا عن منهج القرآن في استعمالها ، وليكن ذلك مع بعض أمثلتها لا على سبيل الاستقصاء .

والباحث يرى استعمالات القرآن لها تجري على المنهج التالي :

أولاً : في مقام المدح

١- ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة:٣٨).

٢- ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران:١٦٢).

٣- ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (النساء:١٢٥).

٤- ﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ (المائدة:١٦) .

٥- ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ (طه:٤٧).

٦- ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ﴾ (الجاثية:١٨).

ثانيًا : في مواطن الذم

١- ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾

(الإسراء:٦٣).

٢- ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (ص:٨٥).

٣- ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ (الكهف:٢٨).

٤- ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ (طه:١٦) .

٥- ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ﴾ (البقرة:١٠٢) .

٦- ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ (مريم:٥٩) .

٧- ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾

(الحج:٣).

● وقفة مع هذه المادة :

هذه النصوص المختارة في الموضعين .. استعملت فيها المادة « تبع » استعمالاً مجازيًّا ، ويختلف تقدير المجاز باختلاف الاعتبارات .

فمثلاً قوله تعالى : ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ ﴾ يمكن حمله على الاستعارة التصريحية التبعية حيث شبَّه الامتثال والانقياد لما جاء به الوحي بالسير المعلوم .

ويجوز حمله على الاستعارة بالكناية ، بأن يُشبِّه الهدى برائد يتقدم الرَّكْب على غاية شريفة ، ثم حذف ورمز له بالاتباع .

ويمكن حمله على المجاز التمثيلي بأن تشبه هيئة المؤمنين في اقتدائهم بالرسول عليه السلام من امتثال الأمر واجتناب النهي بهيئة ركب يسيرون وراء هاد لهم ، ناصح أمين .

وهذا التوجيه صالح لتطبيقه على الآية الثالثة والآية الرابعة والآية السادسة من الطائفة الثانية .. وموطن المجاز فيها :

﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ عبارة مشتركة بين الثالثة والرابعة .

﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ وهي عبارة الآية السادسة .

فالهوى والشهوات صنوان ، ومَنْ يتبعهما واقع في أسرهما ، يصرفانه كيف يشاءان ، لذلك فإن حمل المجاز في هذه المواضع على المفرد بنوعيه ـ التصريحية والمكنية ـ أو التمثيلي منه رأي سديد .

● **ملاحظات مهمة :**

وهنا ملاحظات هامة تبدو أمام النظر :

أولاً : أن الاستعمال المجازي يغلب على هذه المادة حتى لا تكاد تجد من بينها ما استعلمت فيه في معناها الوضعي إلا نادرًا .

وأن المجاز فيها يتردد بين المفرد والمركب .

ثانيًا : إذا كان متعلق المادة أمرًا محمودًا استعملت حينئذ في مقام المدح إخبارًا عن المؤمنين ، أو خطابًا لهم ، أو في سياق الحديث عما ينبغي أن يكون .

وفي هذا المقام لا تجيء إلا مثبتة .

أما في سياق الحديث عن العصاة والكافرين ، فإنها لا تجيء إلا منفية مادام متعلقها أمرًا محمودًا ، تحقيقًا لذمهم لما هم عليه من ضلال وكفر .

ثالثًا : إذا كان متعلقها أمرًا مذمومًا ، فإن كان سياق الحديث عن المؤمنين فإنها تجيء منفية ، حفاظًا على صفة الكرامة والنزاهة لهم ، وإن كان في سياق

الحديث عن العصاة والكافرين ، فبقاؤها على الإثبات أمر مطرد ، تحقيقًا لصفة الذم والتحقير .

رابعًا : وإذا كانت مخاطبة بين الكافرين فيما بينهم بعضهم لبعض ، أو فيما بينهم وبين المؤمنين ، فالحال مختلف تبعًا لاختلاف معايير الفضيلة عندهم ، وهي تجري على النحو الآتي :

١- إذا خوطبوا ليتبعوا ما أنزل الله من البيِّنات والهدى تمسكوا بما وجدوا عليه آباءهم من عقائد ضالة ونحل فاسدة قائلين : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ (البقرة: ١٧٠) .

٢- وإذا تدارسوا الوضع فيما بينهم بُغية الوصول إلى موقف يتخذونه قالوا : ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ (القمر: ٢٤) .

أو قالوا : ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ (الشعراء: ٤٠) .

٣- وإذا خاطبوا الرسل أو أشياعهم المؤمنين قالوا : ﴿ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ (القصص: ٥٧).

أو قالوا : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ (الإسراء: ٤٧) ، (الفرقان: ٨) .

٤- وإذا مثلوا أمام ربهم لم يستطيعوا تمويه وجه الحقيقة تمنوا لو تعاد لهم الكرَّة فيؤمنوا ويتبعوا الرسل قائلين : ﴿ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ (إبراهيم: ٤٤) .

فهنا ـ كما قلنا ـ معايير للفضيلة مختلفة ، ولذلك إذا أرادوا إثباتها لأنفسهم جاءت الكلمة مثبتة ، والغرض من إثباتها حينئذ إثبات الفضيلة ـ حسب زعمهم ـ إلى أنفسهم .

أما حين يخاطبون المؤمنين فإثبات هذه الكلمة دليل الذم ـ في نظرهم ـ فهم مثلاً لا يتبعون الهدى لأنهم لو اتبعوه شردوا في الأرض ، ومزقوا كل ممزق ، فالعزة عندهم في البقاء على الضلال ، والهوان في الدخول في الدين واتباع تعاليمه ، ألا ساء ما يحكمون .

وهم لا يتبعون الرسول ، لأنه ـ عندهم ـ رجل مسحور ، أو لأن الذين اتبعوه من الناس ما هم إلا أراذلهم وضعفاؤهم ، ولا يفيقون من سكرتهم إلا ساعة العرض على الله ، وحينئذ يتمنون العودة إلى الحياة ليتبعوا الرُّسل .

٥- وإذا لم يكن متعلقها مما يُحمد أو يُذم ، وليس جاريًا في مخاطبات بين الكافرين بعضهم بعضًا ، أو بينهم وبين المؤمنين ، فهي ـ إذن ـ تفيد ترتيب أحداث تاريخية وقعت أو ستقع .

فمن الأول .. قوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ (الكهف:٨٤،٨٥).

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ ﴾ (الكهف:٨٩،٩٠) .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ ﴾ (الكهف:٩٢،٩٣) .

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ (طه:٧٨) .

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ (المرسلات:١٦،١٧) .

ومن الثاني .. قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾ (النازعات:٦،٧) .

ويلاحظ هنا أن المعنى باق على مجازيته ، إذ ليس المراد بالاتباع المعنى اللغوي الذي هو : سار خلفه ، إلا في قوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ ﴾ فالاستعمال حقيقي فيه ، ذلك هو قانون هذه المادة في القرآن الكريم ، أو نهجها الذي تأتي عليه .. والمجاز غالب فيها .

● **الرسول في التوراة والإنجيل :**

﴿ يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ (الأعراف:١٥٧) .

الضمير المنصوب في « يجدونه » ـ وهو « هاء » الغائب ـ راجع إلى الرسول المذكور قبل هذه العبارة ولمرجعه عليه اعتباران :

أن يرجع عليه باعتبار الذات : أي يجدون ذاته ، وهو المعنى المتبادر إلى الذهن من قوله تعالى : « يجدونه » .. وهذا غير مقصود .

أن يرجع عليه باعتبار آخر غير الذات ـ الاسم أو الصفة مثلاً ـ وهو المعنى المراد ؛ لأن «مكتوبًا» يخصص عود الضمير على الاعتبار الثاني ، ولأن الذات لا توجد بين ضفاف الكتب عن طريق الكتابة ، وهذا يسلمنا إلى القول بالتجوز في التعبير ، وأنها من المجاز المرسل لأن المعنى كما نص عليه الزمخشري : يجدون صفته .

والصفة جزء الذات .. فالعلاقة الكلية لأنه أطلق الكل وأراد الجزء ، والقرينة استحالة أن توجد الذات بين الكتب .

وقد فسَّر القرآن نفس الصفات التي وجدوها مكتوبة فيما بين أيديهم من الكتب السماوية وهي كونه آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر ، مبيحًا لكل الطيبات ، مانعًا لكل الخبائث ، واضعًا عنهم ما كانوا ينوؤون به من أثقال وأغلال .

وهنا نسأل سؤالاً : لماذا عبَّر القرآن الكريم عن الصفات بما يصح حمله على وجود الذات ؟

وما مغزى هذا التعبير وسمته البلاغية ؟

والجواب : لعل السر في ذلك ـ والله أعلم ـ أن الأوصاف التي ذكرت في الكتب السماوية السابقة قبل القرآن بالغة الدقة في التصوير ، حتى إن القارئ عندما يتلو نصًّا فيه تلك الأوصاف يحس ـ وهو يتلو ـ بأن ذات الموصوف قد مثلت أمامه نموذجًا واضحًا ، وإن كان سرًّا في ضمير الغيب .

وهذا منحى له وزنه في بلاغة القول ، وفنون التعبير ، فنحن نعد الكاتب الذي يخط قصة ، أو يصف واقعة وصفًا دقيقًا ، ويرسم الأشخاص رسمًا صادقًا ، حتى يسلب القارئ حدود الزمان والمكان ، فتجيء قصته عملاً فنيًّا محكمًا ووصفه شاملاً .

نعد هذا الكاتب أو الواصف قد ملك من البيان قدرًا كبيرًا ومن البلاغة حظًّا وفيرًا .

وفوق هذا وذاك بيان القرآن وبلاغة القرآن .

● **الطيبات والخبائث :**

﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ (الأعراف:١٥٧) .

هذان وصفان للرسول ذُكِرا بعد وصفين آخرين هما : ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (الأعراف:١٥٧).

وأصل الحل حل العقدة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴾ (طه:٢٧).

واستعماله هنا في الحل ـ الذي هو ضد المنع ـ ففي أصل هذا التعبير مجاز ولكنه كثر استعماله حتى صار كالحقائق اللغوية ، فكأن المحلل كان معقودًا ففك عقده وحل ، والطيب ما لَذَّ حسًّا ، فعبَّر به عن الحلال ترغيبًا فيه ، والحريم : المنع ، والمراد به هنا المنع الشرعي .

والأصل في الخبيث : القبيح وما لا يوافق النفس حسًّا أو عقلاً ، سمي الحرام خبيثًا من باب المجاز تشبيهًا له بالقبيح الذي تعافه النفس وتمجه الطباع ، تنفيرًا منه ، وتزهيدًا فيه .

فقد وضع كل لفظ في موضعه اللائق به ، واستعير للحلال ما يُرغِّب فيه ، وللحرام ما يُنفِّر عنه .

● **« حل » في القرآن :**

واستعمال مادة « حل » في القرآن له ثلاثة أنواع :

أولاً : أن يكون بمعنى الإزالة والفك ، ومثاله قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام داعيًا متضرعًا : ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ (طه:٢٧،٢٨) .. أي أزل وفك .

ثانيًا : أن يكون بمعنى الإباحة والجواز ، وهذا المعنى هو الغالب عليها وله أمثلة كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾ (البقرة:٢٣٠) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ ﴾ (البقرة:٢٢٨).

وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾ (النساء:١٩) .

وقوله : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ (البقرة:٢٧٥) .

ثالثًا : أن يكون بمعنى الحلول ، وهذا المعنى كثير فيها .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ (طه:٨١) .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴾ (طه:٨٦) .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ (إبراهيم:٢٨) .

وقد احتمل قوله تعالى : ﴿ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ (البلد:٢) وجهين :

أحدهما : وأنت حلال مستباح لهم يؤذونك ويناوئونك .

وثانيهما : وأنت حال نازل بهذا البلد .

● **ملحظ عجيب :**

ومن الملاحظات العجيبة أن القرآن استعمل «حلال» من الحل وله فيه طريقتان :

إحداهما : أن ترد في مقام البحث ، وقد اطرد القرآن وصفها بكلمة «طيب» في جميع صورها وهي :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ (البقرة:١٦٨) .

وقوله : ﴿ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ (المائدة:٨٨) .

وقوله : ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ (الأنفال:٦٩) .

وقوله : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ (النحل:١١٤) .

ثانيتهما : أن ترد في مقام الإنكار والزجر ، فتقطع عن ذلك الوصف ، وذلك في موضعين :

الأول : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾ (النحل:١١٦) .

الثاني : ﴿ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ (يونس:٥٩).

● **والسر :**

ولعل سر هذا الاختلاف أن الحلال في المواضع الأولى التي حثت الناس على الأكل مما رزقهم الله هو حلال أصيل في موضوعه فآثر القرآن وصفه بالطيِّب ترغيبًا فيه وطلبًا له .

أما الحلال في المواضع الأخرى ، فحلال مزعوم ، والإنكار مسلَّط عليه أن يكون ، فضلاً عن أن يوصف بالطيب .

● **«طاب» في القرآن :**

أما مادة «طاب» فإن استعمالها في القرآن الكريم يختلف باختلاف نوع اللفظ المستعمل فعلاً أو غير فعل .

فإن كانت فعلاً ـ ولم ترد فيه كذلك إلا بلفظ الفعل الماضي في ثلاثة مواضع ـ فإن المعنى يختلف من موضع إلى آخر وتلك هي مواضعها فعلاً :

١- ﴿ فَٱنكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ ﴾ (النساء:٣).

ومعناها هنا : ما حل لكم[1] .

٢- ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ (الزمر:٧٣).

---

(١) انظر : تفسير الكشاف للزمخشري : ٢٦٠/١ ، وتفسير النسفي : ١٦٠/١ .

ومعناها هنا : طهرتم من خبث الخطايا[1] .

٣- ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ (النساء:٤) .

ومعناها هنا : سمحن أو وهبن ، وعبَّر عن السماح بالطيب لأن المُرَاعَى تَجافى أنفسِهنَّ عما وهبنه وسمحن به فلا هن مكرهات عليه[2] .

أما إذا كان اللفظ المستعمل منها غير فعل ، فهو على نوعين :

أولاً : أن يكون مصدرًا بمعنى الطيب ، وله مثال واحد هو قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ (الرعد:٢٩).

فـ « طوبى » مصدر كبُشرى ، ومعنى طوبى[3] لك : أصبتَ خيرًا وطيبًا[4].

ثانيًا : ألا تكون مصدرًا ولا تكون حينئذ إلا صفة في المعنى أو المعنى والإعراب معًا .

وهذا الاستعمال يستبد بكل أمثلتها ، وتقع صفة بالمعنى المذكور لعدة أمور هي :

١- أن تكون صفة للرزق وذلك كثير متعدد .. منه قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ (البقرة:١٦٨) .

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ (المائدة:٨٨) ،

٢- أن تكون صفة لـ « بلد » .. ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ (الأعراف:٥٨) .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (سبأ:١٥).

٣- أن تكون صفة لكلام .. ومنه قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ (فاطر:١٠) .

---

(١) انظر : تفسير الكشاف للزمخشري : ١١٤/٤ .

(٢) المرجع السابق : ٣٦٢/١ .

(٣) أصلها : طُيْبة قلبت الياء واوًا لسكونها قبلها وضم ما .

(٤) تفسير النسفي : ١٩٣/٢ .

٤- أو تكون وصفًا لمساكن .. ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ (التوبة:٧٢) .

٥- أو وصفًا للريح .. ومثاله قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ (يونس:٢٢) .

٦- أو وصفًا لما يعلو الأرض من تراب .. ومثاله قوله تعالى : ﴿ فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ (النساء:٤٣) .

٧- أو وصفًا للشجر .. ومثاله قوله تعالى : ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (إبراهيم:٢٤) .

٨- أو وصفًا للحياة .. ومثاله قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ (النحل:٩٧) .

٩- أو وصفًا للتحية .. ومثاله قوله تعالى : ﴿ فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾ (النور:٦١) .

١٠- أو وصفًا للناس ـ مذكورين أو غير مذكورين ـ بأن تقوم الصفة مقامهم ، وذلك كثير ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ (آل عمران:٣٨) .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ (النور:٢٦) .

هذا وقد بقي من استعماله ـ غير فعل ـ صورة واحدة تجري مجرى الاسم مرادًا بها الحلال ويقابلها في ذلك الخبيث بمعنى الحرام والباطل ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ﴾ (النساء:٢) .

وقوله تعالى : ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ (الأنفال:٣٧).

● **منهج القرآن في «طاب» :**

أولاً : أن القرآن يُفرّق بين استعمال هذه المادة فعلاً أو اسمًا ، وفي استعماله لها فعلاً فإن كل موضع فيه قد أريد به معنى خاص غير ما يراد بغيره منها .

أما استعماله لها غير اسم ، فهي إما مصدر بمعنى الطلب ، وإما صفة في المعنى أو المعنى والإعراب وتقع كذلك لموصوفات متعددة .

ثانيًا : أن المجاز غالب على استعمالاتها في القرآن ما دام المراد بـ« الطيب» في اللغة ما لَذَّ حسًّا ، ولا يمكن حملها على معانيها الحقيقية إلا إذا وردت صفة لما يوصف باللَّذة الحسيَّة كالرزق لأن منه المأكول والمشروب .

أما مادة «حرم» فإن معناها اللغوي : المنع ، وعلى هذا الفهم تدور صور المادة في القرآن الكريم مرادًا بها المنع الشرعي أو القهري ، ومن معانيها أيضًا التعظيم والحرمان .

ولما كانت هذه المعاني قريبة جدًّا من المعنى اللغوي للكلمة فلنكتف بهذه الإشارة إليها دون الخوض في ذكر الأمثلة ، فذلك لا يؤدي إلى جديد .

● **المعاني المرادة من «خبث» :**

وأما مادة «خبث» فقد مرَّت أمثلتها مع مادة «طاب» لأنها لم ترد منفردة ، ولو رجعنا إلى تلك الأمثلة لبان أن القرآن يستعمل تلك المادة مجازًا في الأغراض الآتية :

١- أن يُطلقها على الحرام والباطل .

٢- أن تأتي وصفًا لبلد .

٣- أن تكون صفة لفريق من الناس .

٤- أن تكون وصفًا لكلمة .

٥- أن تكون وصفًا لشجرة .

وإلى هنا ينتهي دور هذه المادة في القرآن الكريم ، وتفترق عن مادة «طاب» بأن «طاب» إذا جرى وصف منها على الرزق فلا يمنع ما منع من إرادة المعنى الحقيقي ، أما «خبث» إذا جاءت وصفًا للكسب أو الرزق فإنه مجاز دائمًا لأن الحرام قد يلذ حسًّا .

● الإصر والأغلال :

﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف:١٥٧).

وهذه صفة من صفات الرسول ، فهو بعد أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وإحلال الطيِّبات لهم وتحريم الخبائث ، يضع عنهم الأمور الشاقة التي كانت تأصرهم وتثقل كواهلهم والأغلال التي كانت تكبلهم من الحركة وحرية التصرف ، تلك صفة من صفات الرسول يجدونها مكتوبة عندهم في التوراة والإنجيل ، فهي إذن نعمة عظيمة لأن فيها تحرير الإنسان .

وقد نصَّ المفسِّرون على أن المراد بـ «الإصر والأغلال» هو التكاليف الشاقة ، قال الإمام النسفي في تفسير «الإصر» : «المراد التكاليف الصعبة كقتل النفس في توبتهم وقطع الأعضاء الخاطئة» .

وقال في تفسير «الأغلال» : «هي الأحكام الشاقة نحو بت القضاء بالقصاص عمدًا كان أو خطأ من غير شرع الدية وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب وإحراق الغنائم وظهور الذنوب على أبواب البيوت ، شبهت بالغل للزومها لزوم الغل»[1] .

ويتابع النسفي كثير من المفسرين .

وفي العبارة مجاز تمثيلي شُبِّهت فيه هيئة القوم وما هم فيه من تكاليف شاقة بهيئة قوم ينوؤون بأثقال وأحمال وقد قُيِّدوا في السلاسل والأغلال فجاء رجل وخلَّصهم مما هم فيه ففك أغلالهم ، وأنزل أحمالهم ، فذلك هو هو إنسان النور والخلاص .

هذا من حيث النظر إلى التعبير جملة ، فإذا نظرنا إليه نظرة تفصيلية فإننا نحصل على ثلاثة مواضع فيه للمجاز المفرد ، وهي : «يضع» لأن الوضع في أخص معانيه الحط ، ولا يقال إلا لحامل شيء قد أنزله ، و«الإصر» هو

---

(١) تفسير النسفي : ٢/٦٠ .

الحمل الثقيل حسًّا ، واستعماله هنا في المعنويات مجاز ، وكذلك «الأغلال» لأن الأغلال هي السلاسل والقيود الحسيَّة .

● «وضع» بين الحقيقة والمجاز :

أما «وضع» فقد استعملت فيه حقيقة ومجازًا ، ومن استعمالها حقيقة قوله تعالى : ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (الطلاق:٤).

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ (آل عمران:٣٦) .

والوضع في هذين الموضعين مراد به الإنجاب .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ﴾ (النساء:١٠٢).

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ (فصلت:٤٧) .

أما استعمالها مجازًا فيأتي مرادًا به عدة معان :

١- أن يكون بمعنى الجعل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن:٧) .

وقوله : ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ (الرحمن:١٠) .

ويفيد هذا الموضع ـ مع الجعل والإيجاد ـ معنى البسطة والتهيئة .

٢- أن تكون بمعنى الخلع والإلقاء ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ ﴾ (النور:٥٨) . لأن الثياب ـ هنا ـ ملبوسة وليست محمولة حتى توضع .

٣- أن تكون بمعنى البناء والإشادة .. ومثاله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران:٩٦) .

٤- أن تكون بمعنى الإزالة .. ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ (الشرح:٢) يعني أزلنا همومك التي كانت تثقلك .

٥- أن تكون بمعنى الظهور والبروز .. ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ (الكهف:٤٩) .

٦- أن تكون بمعنى التهيئة .. ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ (الغاشية:١٤) .

وكلمة «يضع» في آياتنا استعارة تصريحية تبعية حيث شبه إزالة الإصر والأغلال وإعفاءهم من كثير من الأعمال الشاقة بالوضع ، والجامع ما يترتب على كل من الراحة وإلغاء العناء ، والقرينة حالية .

● **استنتاجات :**

إن القرآن ، استعمل مادة «وضع» في الحقيقة والمجاز ، واستعمالها المجازي فيه يفيد عدة أغراض متباينة فيما بينها وإن شملها هدف عام كان سببًا في التجوز والمشابهة .

أما الإصر فهو في اللغة عقد الشيء وحبسه وقهره ، يقال : أصرته فهو مأصور ، والمأصر والمآصير : محبس السفينة[1] ، ومن معانيه : الحمل الثقيل ، واستعماله هنا في الأمور الشاقة مجاز على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية ، والجامع ما يترتب على كل من المشقات وقهر النفس بالعناء ، وقد زاد من روعة المجاز الترشيح له بمجاز آخر هو «يضع» والترشيح مهيئ للنفس لتبعد بالمستعار عن معناه الحقيقي ، لأن الحمل يوضع حقيقة فهو من ملائمات المعنى المجازي ، المفيد للتقوية والتأكيد .

والمتتبع لاستعمال القرآن لمادة «إصر» يصل إلى الحقائق الآتية ؟

١- أن تكون بمعنى المشقة والعناء وذلك في موضعين :

أحدهما : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ (الأعراف:١٥٧) .

ثانيهما : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا ﴾ (البقرة:٢٨٦) .

---

(١) مفردات القرآن ، الراغب الأصفهاني ص ١٨ ، ١٩ .

والإصر فيهما استعارة أصلية تصريحية ـ كما سبق ـ وقد سبقه استعارة مرشحة في الموضعين فالترشيح في الأولى «يضع» ، والترشيح في الثانية «تحمل» .. وكلاهما من ملائمات المشبه على القول بأن الإصر من معانيه : الحمل الثقيل[1] .

٢- أن تكون بمعنى العهد الموثق ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ﴾ (آل عمران:٨١) .

وتشبيه العهد بالإصر ـ على ما يرى الراغب ـ أنه يؤدي بناقضه إلى الحرمان من الخيرات ويثبطه عنها .

والأولى أن يشبه العهد المؤكد بالإصر بمعنى الحمل الثقيل من حيث التزام المعاهد بالوفاء بالعهد ، ويكون المعنى ـ هنا ـ عظم العهد نفسه وخطورة المسئولية فيه .

والخلاصة : أن هذه المادة لم تُستعمل في القرآن إلا مجازًا ولم تأت فيه إلا اسمًا منكَّرًا في موضع ومعرَّفًا في موضعين .

أما الأغلال فهي ـ كذلك ـ استعارة تصريحية أصلية ، وتكاد تصوِّر بجرسها وموسيقاها المعنى المراد منها .

● **معاني «غل» :**

١- «أن تأتي بمعنى القيد .. ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف:١٥٧) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ (الحاقة:٣٠).

وقوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ (يس:٨) .

---

(١) أورد هذا الرأي الراغب في المفردات ولم يرضه ، وهو غير مستبعد لأن الحمل الثقيل فيه مشقة وعناء .

ومنه كذلك : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ (سبأ:٣٣) .

٢- أن تكون بمعنى الخيانة .. ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (آل عمران:١٦١).

٣- أن يأتي بمعنى الضغائن والأمراض النفسية الحاقدة .. ومنه قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ (الأعراف:٤٣).

ومنه أيضًا : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (الحشر:١٠) .

٤- أن تأتي بمعنى البخل .. ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ (الإسراء:٢٩) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (المائدة:٦٤) .

والخلاصة : أن القرآن استعمل مادة «غل» في الحقيقة والمجاز ، فإذا كانت مستعملة في معناها الحقيقي دلّت على معنى القيد والتكبيل ، وأظهر ما يكون ذلك في شأن أهل النار بدليل قرن الأغلال فيها بالسلاسل والسحب في قوله تعالى : ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ (غافر:٧١) .

فالأغلال بالنسبة لأهل النار أغلال حقيقية .. أما المجاز ففيما عدا ذلك .

فإن كان الكلام وارد في وصف عام كالكفر .. فالمجاز المركب التمثيلي هو أظهر ما يكون في توجيه العبارة .

فمثلاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ (يس:٨) .

يقول الزمخشري فيه [1] : «مثل تصميمهم على الكفر وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه» .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٣/٤ ، ٤ .

فهذه استعارة تمثيلية شُبِّهت فيها صورة القوم في كفرهم بصورة مَنْ غُلَّ وقُيِّدَ وسبغ «الغل» جسمه حتى ذقنه فلم يستطع حركة .

ويكون قوله تعالى : ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ .. ترشيحًا للمجاز والقرينة حالية .

● **ثلاث كنايات :**

وإن كان الكلام في وصف خاص كالبخل فالكناية أظهر في توجيه العبارة .. فمثلاً قوله تعالى حكاية عن اليهود لعنهم الله : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (المائدة:٦٤) .. فقولهم : ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ ، وقوله في الرد عليهم : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ وقوله أيضًا : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ الأظهر في هذه العبارات أن يكون قولهم : ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ كنايتين عن البخل ، وأن يكون قوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ كناية عن الكرم الواسع .

والخلاصة : أن هذه العبارات يجوز اعتبارها مجازًا مركبًا أو مفردًا بأن يكون المجاز فيها استعارة بالكناية فيما يصح فيه ذلك ، ويجوز جعلها من باب الكناية حتى في عبارة اليهود : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ ، ولا يمنع من إيراد الكناية عليه أنه يجوز فيها حمل الكلام على المعنى الحقيقي ـ وهذا قول فيه خلاف ـ لأنَّا نقول : إن الله قد صرَّح في القرآن بأن له يدًا في غير هذا الموضع ، وعلى ما بين السَّلَف والخَلَف من خلاف في هذا المجال فإن العبارة محكية عن اليهود وهم لا يراعون مثل ما نراعيه نحن المسلمين من هذه الاعتبارات الدقيقة في مجال الاعتقاد .

هذا .. وقد بقي توجيه واحد للزمخشري في عبارة الرد التي ذكرها الله ردًّا على مقولة اليهود حيث قال : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ .

والزمخشري يُجَوِّز أن تكون العبارة من الاستعمال الحقيقي بأن تُحمَل على الوعيد أي أنه توعَّدهم بصيرورة حالهم إلى تلك الحال يوم يلقونه في الآخرة .

والأولى باعتبار حملها على المجاز وإنَّا لنرى اليهود مضرب المثل في البخل بين العامة والخاصة فحق عليهم القول فبخلوا .

● «النور» في القرآن :

﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾ (الأعراف:١٥٧) .

وهذه صورة مجازية رائعة .. شُبِّه فيها القرآن بـ «النور» على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية والجامع : الهداية والإرشاد ، والقرينة لفظية هي قوله : ﴿ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾ .

وعبد القاهر الجرجاني يجعل هذه الاستعارة أبلغ أنواع الاستعارات ويسميها الضرب الصميم الخالص من الاستعارة ، وضابطها عنده أن يكون الشبه مأخوذًا من الصور العقلية ، وذلك كاستعارة النور للبيان والحُجَّة الكاشفة عن الحق المزيلة للشك النافية للريب كما جاء في التنزيل من نحو قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾ ، وكاستعارة الصراط للدين في قوله تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة:٦) .

ثم يقول : «واعلم أن هذا الضرب هو المنزلة التي تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها ويتسع لها كيف شاءت المجال في تفننها وتصرفها»[1] .

وقد استعار القرآن كلمة «النور» في تصرفاتها المختلفة كثيرًا ، والمتتبع لوروده فيه يجده على النحو الآتي :

١- أن يكون وصفًا لكتاب ، ولهذا عدة صور ففي سياق الحديث عن القرآن وردت الصور الآتية :

(أ) ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾ (الأعراف:١٥٧) .

(ب) ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ (المائدة:١٥).

(جـ) ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ (التغابن:٨) .

---

(١) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ص ٤٥ .

(د) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (النساء:١٧٤) .

(هـ) ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (الشورى:٥٢).

في الآيات الخمس جاء «النور» في سياق الحديث عن القرآن الكريم ، وفي القرآن مواضع أخرى يمكن حمل النور فيها عليه ، وسوف نشير إلى ذلك في مواضعه .

٢- في سياق الحديث عن التوراة ، وذلك مخصوص بموضعين :

أولهما : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ (المائدة:٤٤) .

وثانيهما : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ (الأنعام:٩١) .

٣- في سياق الحديث عن الإنجيل ، وذلك مخصوص بموضع واحد ، هو قوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ (المائدة:٤٦).

مما تقدم نستنتج :

أولاً : أن القرآن قد وُصِفَ بأنه نور في خمسة مواضع ، على أن وصفه بالنور محتمل فيما يأتي من أمثلة أخرى .

ثانيًا : أن التوراة وصفت بالنور في موضعين .

ثالثًا : أن الإنجيل وصف به في موضع واحد .

رابعًا : أن سورة المائدة وحدها ورد فيها وصف الكتب الثلاثة ـ القرآن والتوراة والإنجيل ـ بالنور ، وقد قدم القرآن ثم جيء بعده بالتوراة وأخيرًا الإنجيل .

● سؤال وجواب :

والآن لابد من سؤال : هل لكثرة الحديث عن القرآن ووصفه بالنور في مواضع تفوق مواضع التوراة والإنجيل مجموعة من سر ؟ وهل تقديمه عليهما

في «المائدة» ثم تقديم التوراة على الإنجيل وزيادتها عليه بموضع ، هل لكل ذلك سر بلاغي اقتضاه ؟

والجواب : نعم .. لكل ذلك سر وهو ـ فيما أرى والله أعلم ـ أن كثرة وصف القرآن بالنور ، ثم تقديمه على التوراة والإنجيل في سورة المائدة لما للقرآن من أثر بالغ في الهداية مِن ثلاث جهات :

أولاً : أن فيه لكل مشكلة حلاً ، فقد شملت هدايته وتوجيهاته : العقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، وجاء بكثير من العلوم والمعارف : بَشَّر ، وأنذر ، وأجمل ، وفصَّل ، ورغَّب ، ورهَّب ، وشرَّع فأحكم ، وقصَّ ، وهذَّب .. وصدق الله إذ يقول : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ (الأنعام:٣٨) .

وهذه ميزة من حيث الموضوع ..

ثانيًا : أن كل نبي كان يُبعث إلى قومه خاصة ومنهم موسى وعيسى عليهم السلام ، وكتاب كل نبي كان وصايا وإرشادات لأولئك القوم ، ومحمد عليه الصلاة والسلام بُعِث للناس عامة ، فجاء القرآن عامًّا لهؤلاء الناس ، وليس لشعب جزيرة العرب خاصة .

وهذه ميزة من حيث المكان ..

ثالثًا : والرسالات السابقة كانت واجب العمل بها ما دام رسولها حيًّا ، فإذا قُبِضَ أفسح المجال لرسول آخر ورسالة أخرى ، أما رسالة محمد ﷺ فهي خالدة إلى يوم القيامة لا يلغيها رسول بعده ولا يبطل العمل بها بحال .

وهذه ميزة من حيث الزمان ..

وهذا يُفسِّر لنا تلكما الظاهرتين وهما كثرة وصفه بالنور ثم تقديمه عليهما في «المائدة» ، أما تقديم التوراة على الإنجيل وزيادتها عليه بموضع ، فلأن التوراة أسبق وجودًا من الإنجيل ، فالترتيب بينهما زمني محض ، أما الزيادة المذكورة فلأن التوراة أصل للإنجيل وهو مكمل لها ، فلذلك خصصت بزيادة موضع عليه حين وصفا بالنور .

٤- في سياق الحديث عن كتاب مفروض وجوده في معرض الجدل .. وذلك في موضعين هما :

أولاً : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ (الحج:٨) .

ثانيًا: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ (لقمان:٢٠) .

٥- في سياق الحديث عن الكتب التي أنزلها الله في الأمم السابقة .. وذلك في موضعين أيضًا وهما :

أولاً : ﴿ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ (آل عمران:١٨٤) .

ثانيًا : ﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ (فاطر:٢٥).

ونلاحظ الفرق بين الموضع الثالث والرابع ، إذ الكتاب في الموضع الثالث «مُنكَّر» وفي الموضع الرابع «مُعرَّف» وسر التنكير هناك لأن الكتاب في الثالث لا وجود له ، بل مفروض وجوده في معرض الجدل ، فهو موغل في التنكير .

أما في الموضع الرابع فالحديث عن كتاب سبق وجوده ، والألف واللام فيه في موضعيه لتعريف الجنس باعتبار القيد الذي هو الوصف .

وقد جاء «منيرًا» جزء وصف تمثيلي للنبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (الأحزاب:٤٦) ، وكون الرسول «سراجًا منيرًا» تجريد متضمن للتشبيه لأن الذات المجرَّدة مخالفة للذات المجرَّد منها ، وتجريد الشيء من غيره متضمن للتشبيه بخلاف تجريد الشيء من نفسه لئلا يلزم تشبيه الشيء بنفسه .

ولا شك أن التجريد المتضمن للتشبيه ـ كما هنا ـ أبلغ من التشبيه المجرد لإفادة هذا من وجهين : التشبيه الذي تضمنه التجريد ، ثم تجريد المشبه به ، وهذا وحده في قوة الاستعارة التصريحية الأصلية .

● النور للهدى والإيمان :

وإذا تركنا القرآن وهو يتحدث عن الكتب واصفًا لها بـ «النور» وما اشتق منه من أسماء الفاعلين فإننا نراه يستعير النور للهدى والإيمان في مواضع متعددة وفي هذا النوع فإنه كثيرًا ما يستعير «الظلمات» للضلال والكفر في مقابلات عجيبة بين الأضداد والمتخالفات ، ويتضح هذا من الأمثلة الآتية :

١- ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾

(البقرة:٢٥٧).

٢- ﴿ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ (المائدة:١٦) .

٣- ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾(إبراهيم:١).

٤- ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ (النور:٣٥) .

٥- ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (النور:٤٠) .

٦- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾

(الأحزاب:٤٣) .

٧- ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ (الزمر:٢٢) .

٨- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (الحديد:٩) .

٩- ﴿ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾

(الطلاق:١١) .

١٠- ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (الأنعام:١٢٢).

١١- ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾

(الحديد:٢٨).

١٢- ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ (التحريم:٨) .

في هذه النصوص ضرب الله «النور» مثلاً للإيمان والهدى ، و«الظلمات» مثلاً للضلال والكفر .

● **منهج آخر للقرآن في استعمال النور :**

وللقرآن الكريم منهج آخر في التعبير بالنور ، حيث صاغها في جمل وعبارات ترسم صوراً حسيَّة معبرا بها عن معان ذهنية بغية الإيضاح والتقرير ؛ من ذلك مشهدان من مشاهد التكريم خَصَّ الله بهما عباده الطائعين يوم العرض الأكبر .

أحدهما قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ (الحديد:١٢) .

فهذا فريق من الناس كافأه الله حُسنًا ، فمنحه نوراً يوم القيامة يسير على هداه ويبدو أن المراد بالنور ـ هنا ـ نور حقيقي لا مجازي ، ومع ذلك فإن الآية لم تخل من المجاز .

فقد أسند السعي إلى النور وليس هو فاعله الحقيقي ، وهذا مجاز حكمي ـ كما يسميه عبد القاهر ـ أو عقلي كما اشتهر عند المتأخرين ، والتقدير : يسعون بنورهم .

والعلاقة اللزومية لأن النور ملازم لهؤلاء ، والقرينة : استحالة أن يسعى النور منفردًا .

● **السر البلاغي لهذا المنهج :**

والسر البلاغي أن كل شيء أصبح في خدمة هذا الطريق ، حتى النور أصبح خادمًا لهم ، يمهد الطريق ويسير عن أيمانهم وبين أيديهم .

فهاتان كنايتان رائعتان بديعتان ، فهو يسعى بين أيديهم وبأيمانهم لأن هاتين الجهتين هما اللتان يتلقى المؤمنون سجلات أعمالهم عن طريقهما ، كما أن الكفار يؤتون كتبهم عن شمائلهم ومن وراء ظهورهم[1] .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٤/٢٨٧ .

إذن فهما كنايتان عما قدّموا من عمل صالح ، فحققوا لأنفسهم رضا الله ورحمته ، ويجوز حمل العبارة على التمثيل ، بأن مثّل الله حالهم وما يلقونه من تكريم ورضوان بقوم هذه حالهم من سعي النور أمامهم وعن أيمانهم .

وصورة أخرى مماثلة ، وهي قوله تعالى : ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ (التحريم:٨) .

وليس بين الصورتين إلا فرق واحد ، ففي الآية الأولى قدّم : « يسعى » على الفاعل المجازي : « نورهم » وأسند الفعل إلى صريح لفظ الفاعل .

وفي الآية الثانية قدّم : « نورهم » وجعل مبتدأ وأخّر الفعل : « يسعى » وأسند إلى ضمير النور إسنادًا مجازيًا ... وليس بعد ذلك بينهما من فرق .

ولعل السر أن الله أراد أن يثبت صفة النور للمؤمنين والمؤمنات بكلتا الطريقتين المعروفتين في العربية ـ الجملة الإسمية والجملة الفعلية ـ ليفيد أن ذلك حاصل لا محالة ، متجدد مستحدَث ، وثابت متأصل .

● **محاولات يائسة :**

وصورة أخرى مختلفة مع هاتين : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (الصف:٨) .

والنور هنا صالح حمله على القرآن والإسلام .. « مثلت حالهم بحال مَنْ ينفخ في نور الشمس ليطفئه بفيه » .

وهذا التمثيل له دلالتان : قوة نور الله وظهور أمره حتى مثل أمامهم نورًا حقيقيًا كنور الشمس .. وهذا أحد الدلالتين .

أما ثانيتهما : فضعف كيد الكافرين ، لأن كل محاولاتهم لم تكد تعدو النفخ بأفواههم وما ذلك بمحقق لهم ما يريدون .

وكلمة : « بأفواههم » تعبير جميل رشيق ، لأن المعنى تم بدونه فجاء هو لإضافة ظلال رقيقة على المعنى العام اكتسى بها جمالاً ورواء .

فقد أفادت ـ أولاً ـ أن كيدهم للقرآن لم يعد كلمات جوفاء اتهموه بها : أساطير الأولين ـ رئى من الجن ـ شِعر ـ لو نشاء لقلنا مثل هذا ، هذه الكلمات لم يكن لها نصيب من الوجود سوى التلفظ بها لم تتمكن حتى من قلوب قائليها ، وهذا يدل على ضعف كيدهم .

وهي تفيد ـ ثانيًا ـ أن النور كان ماثلاً أمامهم حتى قصدوه قصدًا في مكان وجهة ، وهذا يدل على ظهور أمر الله وقوة انتصاره .

وهي تفيد ـ ثالثًا ـ أن هذا النور لم يكن لأي عامل آخر أن يطفئه ، ريح شديدة ـ مثلاً ـ أو عاصفة مدمرة ، فهو قائم رغم هذه التقلبات التي لا يكاد يخلو منها وقت ، فكيف يتسنى لهم أن يطفئوه بأفواههم ؟ إنه نور قوي باهر وسيظل ـ هكذا ـ نورًا باهرًا قويًا .. ولو كره الكافرون .

وبعد هذا يمكن أن نستنتج الحقائق الآتية :

أولاً : أن القرآن الكريم يضرب «النور» مثلاً للمعاني الشريفة والصفات الحميدة ، كما يضرب «الظلمات» مثلاً للمعاني الوضيعة والصفات الذميمة .

ثانيًا: أن القرآن لم يستعمل النور في تلك الأغراض إلا مفردًا اسمًا أو صفة، أما «الظلمات» فلم يستعملها في أغراضها إلا مجموعة ـ لا مفردة ولا مثناة ـ فهل لهذا من سر ؟

نقَّبتُ عن هذا السر في مظانه فلم أعثر على توجيه ، لا في كتب التفسير ولا خارج كتب التفسير ، ولذلك فإني أسجل ـ هنا ـ ما خلصتُ إليه مما ظننتُ أنه يصلح أن يكون توجيهًا لهذا الصنع .

● **لماذا أفرد القرآن «النور» وجمع «الظلمات» :**

إن النور سواء أكان المراد به كتابًا يهدى إلى الرُّشد ، أو حُجَّة تكشف النقاب عن الشُّبهات ، أو رسولاً يدعو الناس إلى الحق ، أو إيمانًا يعمر به قلب المؤمن ، أو عملاً يحقق لصاحبه رضوان الله ... كل ذلك له مصدر واحد هو الله سبحانه وتعالى ، والقرآن على ذلك خير شاهد .

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (النور:٣٥)، ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ (النور:٣٥) ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (النور:٤٠) .

ولهذه الاعتبارات وَحَّد النور في القرآن تبعًا لوحدة مصدره ، وهو «الله» نور السموات والأرض .

أما الكفر والجهل والضلال فقد تعددت أسبابها ومصادرها ، فالشيطان ضال مضل ، والأصنام والأوثان مضلة ، والأهواء مضلة ، وأصدقاء السوء ضالون مضلون .. ولهذا تعددت الظلمات تبعًا لتعدد مصادرها .. والله أعلم .

● **خصائص المجاز القرآني :**

أولاً : أن المجاز في القرآن بأنواعه المختلفة ، سواء أكان لغويًا أو حكميًّا ، واللغوي سواء أكان استعاريًّا أو مرسلاً ، يؤدي وظيفة جليلة الخطر في البيان القرآني من التوسع في ضروب التعبير ، واستخدام المادة الواحدة سواء اختلفت مشتقاتها أو اتحدت في البنية في معان شتَّى وأغراض مختلفة ، لم يكن لها هذا الاتساع لولا فن المجاز .

ثانيًا : أن المجاز في القرآن يختار الكلمات الوافية بحق المعنى والمصورة تصويرًا حسيًّا للمعاني كاستعارة «الطيبات» للحلال ترغيبًا فيه وحثًّا عليه ، واستعارة «الخبائث» للمحرَّم تنفيرًا عنه وتزهيدًا فيه .

ثالثًا : قد رأينا التفرقة العجيبة بين مشتقات المادة الواحدة ، كمادة «مرض» فقد اختص القرآن صورها الفعلية بالمجاز إلا في موضع واحد جاءت فيه المادة فعلاً مرادًا به المعنى اللغوي ، وهو قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (الشعراء:٨٠) .. وما عدا ذلك فمجاز مستعمل في مقام الذم .

فإذا استعملت اسمًا أو صفة .. فلا تجوز فيها حينئذ ، مثل : ﴿ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ (النور:٦١) ، ومثل : ﴿ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ ﴾ (النساء:١٠٢) وتستعمل هنا في مقام التشريع .

رابعًا : يحقق المجاز القرآني ـ وتدخل في ذلك كناياته ـ سمة هامة من سماته البلاغية هي التصوير والتجسيم والتخييل ، وقوة المعنى وتقريره وإيضاحه .. وهو لذلك يغلب فيه المجاز الاستعاري لتصوير المعقول بالمحسوس كما يكثر فيه المجاز المركَّب ، وكل مجاز فيه بالغ حد الإعجاز بحيث لو بدلت صورة بأخرى لنبا المعنى ورفضه إحكام الأسلوب كما يرفض الجسم الصحيح عضوًا غريبًا رُكِّب فيه .

● **سكوت الغضب ووضع الحرب :**

خذ إليك مثلاً موضعين متشابهين من مجاز القرآن ، وليكونا قوله تعالى ـ مصورًا هدوء ثورة موسى على قومه ـ : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ (الأعراف:١٥٤) .

وقوله تعالى مصوِّرًا إنهاء الحرب الطاحنة : ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ (محمد:٤) .

فسكوت الغضب أمكن ـ كما مَرَّ ـ حمله على المجاز المركب أو الاستعارة المكنية .. أو الاستعارة التصريحية التبعية .

و« تضع الحرب أوزارها » استعارة مكنية كذلك أو تمثيل ، والعبارتان تعبران عن الهدوء الذي يعقب الحركة الشديدة ، فهما متشابهان وقد اختلفت الألفاظ من عبارة إلى أخرى ـ فالسكوت والغضب في الأولى ، والوضع والأوزار في الثانية ـ كل منها موف بمعناه واقع موقعه من البلاغة ، فموسى إنما يتكلم ويتحرك فناسب ذلك السكوت بشرط أن يكون فاعله الغضب ، والحرب يُحمل فيها السلاح الثقيل والخفيف ، وهي نفسها شدة وخَطْب ، فناسب ذلك الوضع ، لأنه يكون في المحمول والأوزار ـ كذلك ـ لأنها أحمال .

● **عض الأنامل وعض الأيدي :**

وكذلك إذا أجرينا ذلك بين كنايتين متشابهتين .. وليكونا قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ (آل عمران:١١٩) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان:٢٧) .

كلتا العبارتين تدل على الألم والحسرة فهما ـ إذن ـ كنايتان عن صفة وقد تفاوتتا في تصوير المعنى ، لأن عض الأنامل دون عض الأيدي ، وذلك التفاوت راجع إلى تفاوت المقامين .

فالمنافقون يتحسرون عندما يرون قوة المسلمين وظفرهم وتتابُع انتصارهم، وهم على ما هم عليه من النفاق لا حول لهم ولا قوة ، وهذا خطأ يمكن إصلاحه بأن يؤمنوا ويتبعوا الهدى .

أما الظالم فحسرته أشد وألمه أوقع ، لأنه يكون في وقت لم تبق فيه فرصة لمستتيب ولا نفع لنادم .

ولهذا يمكن فهم المبالغة في الكناية الثانية بالعض على الأيدي دون الأنامل فكل من العبارتين وقع موقعه من غير ما قصور أو فضول ، وهذه سمة أيضًا من سمات الإعجاز البياني في القرآن .

● **منهج فريد :**

خامسًا : للمجاز في القرآن الكريم منهج لم يُعرف لسواه ، فهو فضلاً عما تقدَّم ـ نراه في بعض الصور يعمد إلى وصف له صلة بأمرين ، وهذا الوصف من حيث صلته بالأمرين قائم بأحدهما وواقع على الآخر ، وقيامه بأحدهما يكون عن طريق الحقيقة ، ويكون عن طريق المجاز .. أما وقوعه على الآخر فعلى طريق الحقيقة .

وهذا الوصف ـ هنا ـ هو العمى ، فالكافر ـ وهو أحد الأمرين ـ يوصف به على طريق المعنى اللغوي بأن يكون أعمى حقيقة ، وليس هذا بمراد لنا هنا ، ويوصف به على طريق المجاز بأن يشبَّه جهله بالعمى ، وهذا هو المراد لنا ، وكثيرًا ما شبه القرآن الكافرين بالعمى ، واستعار ذلك لهم .

أما الأمر الثاني ـ الذي له صلة بهذا الوصف من حيث وقوعه عليه ـ فهو البيِّنات التي جاء بها الرسل ، فهي يُعمى عنها ، ولا تعمى هي .

إذا تقرر ذلك .. فإن في القرآن موضعين وصف فيهما الأمر الثاني بالعمى مجازًا ، أحدهما قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (القصص:٦٥،٦٦) .

وثانيهما : قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ (هود:٢٨) .

فقد أسند العمى إلى الأنباء في الأولى على أنها فاعل له ، وأوقع عليها في الثانية .. وكل هذا إنما هو من قبيل المجاز .

فالأنباء لا تعمى وإنما العمى يحجب رؤيتها عمن قام به ، والبيِّنات أو الرحمة لا تعمى وإنما يعمى عنها ما من شأنه أن يراها ، إذن فلماذا سلك القرآن هذا المسلك ؟

إن حقيقة الموضعين أن يقال : خفيت عليكم الأنباء ، وخفيت عليكم البينة أو الرحمة ، فلماذا إذن شُبِّه خفاؤهما بالعمى ؟ وإنما العمى صفتهم لا صفة الأنباء ولا البيِّنة ولا الرحمة ؟

أقول باختصار ـ وقد سبق الحديث عن هذين الموضعين ـ : إن في هذا التعبير تعريضًا بهم في الموضعين ، وفيه كذلك مبالغة في وصفهم بالعمى .

أما التعريض .. فلأنهم يدركون أن الأنباء لا تعمى ، وبقياس سهل ، يدركون أن الأعمى إنما هم لأنهم هم الذين لم يروها ، والبيِّنة أو الرحمة لا تعمى ، وبنفس القياس السهل يدركون أن الذي أعماه جهله إنما هو هم ، لأنهم لم يفقهوا البيِّنة أو الرحمة وقد فقهها آخرون .

وهذا هو جانب التعريض في التعبير ..

أما المبالغة : فإن وصفهم بالعمى قد فاق حد التصور حتى عَمَّ المكان الذي هم فيه ، وحتى أصاب ما من شأنه ألا يعمى بالعمى ، لزيادته على كل حد معهود وقدر معروف .

● **وضوح المناسبة :**

سادسًا : ويمتاز المجاز القرآني بوضوح المناسبة بين المستعار منه وبين المستعار في المجاز الإفرادي والمجاز التركيبي ، وقوة الصلة بين الصور المكنَّى بها وما تدل عليه من معان كنائية ، كما يمتاز بالإبداع والجزالة ، وأنه قد منح الجمادات حياة ، والمعاني حدودًا وأبعادًا ومساحات ، وأمثلة ذلك كثيرة .

● **الذوق في القرآن :**

سابعًا : أن المجاز القرآني يجمع بين الأضداد وما هم كالأضداد ، ويؤلف بين المتباعدات والمتباينات ، فلا تحس مع ذلك غرابة في الأسلوب ولا ضعفًا في المعنى .

ولنأخذ لذلك استعارة واحدة لنرى ما انتظمته من أجناس وأنواع ، وهذه الاستعارة هي «ذاق» وما تصرَّف منها .

لهذه الاستعارة شأن عظيم في القرآن الكريم ، ولم تأت هذه الكلمة في القرآن إلا استعارة ، فلنذكر أمثلتها مكتفين من كل نوع بمثال ما لم تدع إلى الزيادة ضرورة .

وقد استعيرت هذه الكلمة في جانب الموضوعات الآتية :

١- مع الشجرة : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ (الأعراف:٢٢) .

٢- مع الوبال : ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ (الطلاق:٩) .

٣- مع البأس : ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ﴾ (الأنعام:١٤٨).

٤- مع السوء : ﴿ وَتَذُوقُوا ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ﴾ (النحل:٩٤).

٥- مع العذاب : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ (النساء:٥٦).

٦- مع الكنز : ﴿ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ (التوبة:٣٥) .

٧- مع العمل : ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (العنكبوت:٥٥) .

٨- مع الفتنة : ﴿ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾

(الذاريات:١٤).

٩- مع المس : ﴿ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾ (القمر:٤٨) .

١٠- مع اللباس : ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾

(النحل:١١٢) .

١١- مع الرحمة : ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾

(الروم:٣٣) .

١٢- مع الخزى : ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الزمر:٢٦) .

١٣- مع الضعف : ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾

(الإسراء:٧٥) .

١٤- مع النعماء : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ﴾ (هود:١٠) .

١٥- مع الموت : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

(العنكبوت:٥٧) .

١٦- مع البرد : ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ (النبأ:٢٤) .

وهذا هو الموضع السادس عشر وقد أوقع فيه الفعل منفيًّا على البرد ، معطوفًا عليه الشراب .

● **الذوق لغة وبيانًا :**

والذوق في اللغة وجود الطعوم بالفم ، وأصله أن يكون بطرف اللسان فيما قَلَّ من مأكول أو مشروب ، فإذا كثر فهو أكل أو شرب وليس ذوقًا .

فما السر البلاغي في القرآن الذي اقتضى إيقاع هذا الفعل على ما ليس بمذوق وقد علمنا أن هذا التعبير مجاز استعاري في جميع صوره حتى في : ﴿ ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ ﴾ ، وفي هذا المثال مجازان استعاري ومرسل :

أما الاستعاري فإنه عبَّر عن الأكل بالذوق ، والمعروف أن آدم عليه السلام وحواء أكلا من الشجرة ، أكلا ولم يتذوقا ، وهذا هو المجاز الاستعاري .. أما المرسل فلأن المذوق هو ثمار تلك الشجرة وليست الشجرة نفسها .

● **مقام المخالفات :**

ومن الملاحظات الهامة أن هذه الاستعارة لم ترد إلا في مقام المخالفات سواء أكان ذلك حال الحياة أو بعد الموت ، فآدم وحواء خالفا ربهما بعصيان أمره ، والكافرون المقول لهم : ﴿ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾ مخالفون لشرائع ربهم ، والذي أذاقه الله الرحمة مخالف لربه حيث لم يشكره في السرَّاء ولم يصبر في الضرَّاء .

والذي يقال لهم : ﴿ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ مخالفون لربهم في كنزهم المال وعدم التصدق منه وإخراج زكاته .

ففي هذه الاستعارة معنى التهكم وهذا واضح في ما خوطب به الكافرون أو أسند إليهم مثل : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ (الدخان:٤٩) ، ومثل : ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ (ص:٥٧).. ويظهر هذا التهكم في كل ما يُقال للعصاة يوم القيامة .

أما فيما أُسند إلى آدم وحواء فلبيان أن بدو السوءات حصل بأقل ما يكون من الأكل بمجرد الذوق ، وهذا يبيِّن أن نصح الله لهما كان من أجل مصلحتهما

وأنهما حين خالفا أسرع إليهما أثر تلك المخالفة فالحكمة كانت في امتثال أمره .

والصورة الأدبية التي أراد القرآن إيضاحها في : ﴿ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾ (النحل:١١٢) أن الجوع والخوف محيطان بهما إحاطة اللباس بلابسه وتكون فائدة الإذاقة حينئذ أنهم وجدوا طعمهما المر وأحسوه كما يحس المتذوق طعم ما ذاقه من مأكول أو مشروب ، وفي هذا معنى التهكم حيث جعل طعامهم ولباسهم جوعًا وخوفًا ، وأوقع عليهما الإذاقة .

كما يبدو التهكم مع التعجيب من شأن مَن يُعرِض بجانبه بمجرد أن يذيقه الله الرحمة فإذا سمل منها طغى وتكبر .

فانظر إلى سحر المجاز في القرآن الكريم وروعة أثره ووظيفته الكبرى في التربية والتهذيب ، وهو ـ على كثرته وتنوعه فيه ـ خال من التكلف والمآخذ بل هو آية الآيات في الحُسن والجمال .

* * *